الفضيلة

وجدتني يوماً من أيام هذه الحياة في عاصمةٍ من عواصم هذا العالم استفزتني فيها مشاهد متباينة أضحكنَ وابكينَ ؛ وظللتُ متجوّلاً في مشارعها وشوارعها ، وأنديتها وأوديتها ، كأني ناشد ضالةً وهل تنشد في ظلمات هذه المدنية الاّ الفضيلة الضائعة لا بل (الضالة) لأنها هبطت من المحل الأرفع وهوت من الفضاء الى ثرى الغبراء ، ومن عالم النور والسيارات والشموس ، الى عالم الظلمة ظلمة الفضاء والعقول والنفوس ، ونزلت من السماء سماء الصمت والسكون والراحة الأبدية ، الى حضيض جلبة الانسان ، وعجيج الحيوان ، فضلّت هـذه الفضيلة وأضلّت . ضلّت حين لم تجد سكناً تأوي اليهِ في جديد مُستقرّ اختارته ، وعرفت انها التائت بحمأة الخطيّة ، وأضلّت لأنها تركت الفلاسفة والشعراء لخاطين في الظلام . أضلّتهم لأنها ربة عبَدها الناس، لا جميع الناس، ولكن عبدها الشاعر والفيلسوف ، وسجد لها الأدبيون والأخلاقيون وهم لا يدرون أين يضعون لها شطر الوجوه ، فضلّوا وأضلّوا كما فعلت الآلهة من قبل . فيا لضلال العابد والمعبود !

ضائعة أنت أيتها الفضيلة وأنتم أيها الفلاسفة والشعراء واركان الحكمة والآداب كل منكم فضيلةٌ أرضية ضائعةٌ ضياع فضيلة السماء في الأرض ؛ كل منكم فضيلة ضائعة ولكن ليست بأرضيةٍ كما قيل ، لأنكم أرواح سماوية ، وجواهر مجرّدة ، هبطت مع الآلهة الى الأرض ، فضاعت

آلهتكم وضعتم معهـا أنتم في ثنيات القرون . حقيقة كشفتموها ومثل ضربتموه هو ان الأرض الخبيثة لا ينبت فيها الطيب بل الخبيث

الأرض الخبيثة تبخل على الزهرة بشيء من قواها الحيوية فتخرجها ضعيفة القوام لا تقوى على الفواعل. تتأثر حتى من النسيم البليل ، وتحرقها حتى حرارة شمس الخريف المعتدلة ، ثم انها تودّع الحياة غير شبعانةٍ من الأيام كأنها أمل في صدر الفتاة ما عتم القضاء ان رماه باليأس فأطفأ نوره

اما الأشواك فلها من التربة السوداء كل حياةٍ تجعلها راسخة الجذور رسوخ حب الأثرة في نفوس الجبّارين ، وتبرزها محدّدة الرؤوس كأنها حراب الجنود المسخّرة لتدمير الشعوب الضعيفة ، وتكوّنها جاثيةً على الرمال كأنما هي رؤوس الأرواح الشريرة نافرةً من بطون الأرضين على وجه البسيطة

الفضيلة تلك الزهرة الضعيفة القوام لا تلبث أشواك الاجتماع ان تقضي عليها ، لأن نفوس البشر تربة خبيثة لا تغذّي الازهار ولكنها تغذّي الأشواك السامة ، تبسطها على طريق المصلحين فتدمي أقدامهم ، وتملأ بها سبيل التعساء فتزيد آلامهم ، فيا تعست تلك التربة الخبيثة وتعس من ورائها الجناة الآثمون !

الفضيلة زهرة عطرة لا تحب أن تخرجها الأرض ، لا بل لا تحب هي ان تخرج من الأرض ، لأنها لا تريد أن تتغذّى بعناصر أشقياء هذا العالم تدكّهم عروش الظالمين ، وتحشرهم في الأجداث المظلمة ، فتحلهم الطبيعة غذاءً لها ، فبئس غذاء الأشواك لا غذاء الورود ، وبئست تلك

الهياكل المحنَّطة التي أنفوا عليها حتى من فعل الطبيعة ، والتي تحبّ الكبرياء حتى وهي في أجداثها العميقة ، والتي أقامت من الأهرام دليلاً على الجبروت

الفضيلة زهرة لا تحبّ أن تستمد من هواء هذه الأرض لأن هذه أنفاس وتلك حسرات ممتزجة بجواهره الفردة . نفثات صدورٍ وآلام ، وحسرات كرام، لا تحب أن تنمو عليها تلك الزهرة الطاهرة، لأنها لا تريد ان تجتذب من الهواء آلام البشر وحسرات الانسانية الشقية ، ولا تحب أن تعيش في محيط تلك الأمواج الاثيرية التي يبعثها أنين المظلومين ، وعجيج الفقراء ، وأصوات الحزانى

حقاً ان الزهرة قصيرة مدى الحياة لأنها شاعرة حساسة ذات ضميرٍ ووجدان لا يوجدان في ظواهر هذه النفوس البشرية ، فلذلك تتأثر وتتألمَ وتذبل فتموت . فسلام على الزهرة !

ما أشبه تلك الزهرة بالفضيلة ، ما أشبهها بتلك التي تخالج صدر الأديب وتعالج نفس الفيلسوف ، تريد أن تنمو لتكون فيّاضة الوجود على العالم بأسره ، فتمنعها الرذيلة فيموت حاملها وتموت هي قصيرة مدى الحياة بموتهِ ، فيا لرزية الانسانية بفقدكِ أيتها الفضيلة !

(النجف) محمد رضا الشبيبي

---

(٣٩)

٤ * ٢٠